ريادة في علم مشتبه النظم القرآني

Pioneers of the Science of Similarities in the Qurʾānic phrases

Dr. Maḥmūd Ḥasan Makhlūf
Professor Faculty of Arabic, University of Al-ʾAzhar
Email: azahr200785@yahoo.com

Abstract:
Similarities in the Qurʾānic phrases are the branch of the study of Inimitability of the Holy Qurʾān (ʾIʿjaz Al-Qurʾān) and it reflect the richness of Arabic language and its vocabulary. These Similarities means: to tell a story in different phrases and different rhyming endings in the verses of the Holy Qurʾān. This paper will highlight the importance of the Science of Similarities in the Qurʾānic phrases. It also elaborates a brief history of this science along with a description of Pioneers of this science.

Keywords: Similarities in the Qurʾānic phrases, Inimitability of the Holy Qurʾān, ʾIʿjaz Al-Qurʾān, Rhetorics, rhyming endings.

التعارف

علم مشتبه النظم فرع من علوم إعجاز القرآن: كما ذكر الزركشي في " البرهان " والسيوطي في الإتقان، وقد عرفاه بأنه: إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة، فيكثر في إيراد القصص والأنباء. وحكمته: التصرف في الكلام، وإتيانه على ضروب؛ ليعلمهم عجزهم عن جميع ذلك مبتدأ ومكرراً [1]. وهو علم جليل يجب أن يعني به كل مسلم، سواء كان متخصصاً في علوم الإعجاز وتذوق النصوص، أم كان غير متخصص.

وتنبع أهمية هذا العلم للمسلم غير المتخصص من كونه يجيب على تساؤلات كثيرة تثور في عقل قارئ القرآن الكريم، حين يجد تشابهاً في مئات الآيات، مع فروق في النظوم، تثير تساؤل المتأمل.

ففي آية البقرة: 126 – على لسان إبراهيم في حق مكة –: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾.

وفي آية إبراهيم: 35: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ تنكير (بلدا)، وتعريفها.

وفي آية الفرقان: 70: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾.

وفي آية مريم: 60: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بإثبات (عملاً)، وحذفها.

وفي آية الزمر: 71: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.

وفي آية الزمر: 73: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بإثبات واو الوصل، وحذفها.

وفي آية الأنعام: 6: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وفي آية الشعراء: 6: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بـــ " سَوف " في الموضع الأول والسين في الثاني، وإثبات الجار والمجرور والظرف ومَدخوله ﴿بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ في الموضع الأول وحذفها في الثاني.

وتساؤل القارئ المتأمل عن كل هذا لا يجيب عليه إلا علم مشتبه النظم، فوجبت عليه مطالعته[2]. وتتمثل أهمية علم مشتبه النظم لأولي الاختصاص في علوم الإعجاز، والبلاغة، والتذوق في أنه يفتح أمام بصائرهم آفاقاً رحبة متعددة للبحث فيها، سيما وأن تطبيقات هذه العلوم تثري الدرس البلاغي والنقدي المعاصر، وتمده بضوابط، ولطائف

متجددة بلا انقطاع.

خذْ النظوم المتشابهة في القرآن، وانظر فيها بتدبر بعد استقصاء، وتحديد سياقاتها = فسوف تتفتح بين عينيك من موضوعات الدراسة مالا يقع تحت حصر، من حيث تنوع النظوم، وتشابهها، مع افتراق في جزء نظم أو جزئين، بعد اتفاقها في الأكثر الأغلب...من أجل هذا وجب على الدارسين المتخصصين – وجوب عين – إدمان طرق هذه الأبواب، وفتح مغاليقها، وكشف خبيئها المكنون، ولقط درها المصون.

وفي هذا وسابقه إصلاح لمفسدة مبيرة دسها مخططو برامج التعليم في مصر إبان إحكام قبضة الاحتلال الإنجليزي عليها، وتعمدهم الآثم تغييب حقيقة نزول القرآن من مقررات دراسة اللغة العربية، وتاريخها، وأدبها، وعلومها؛ طمساً لهوية الأمة وتميزها، اللهم إلا إشارات خفيفة لا تمثل كُنْه هذه الحقيقة، ولا عظْم آثارها، مما تفردت به العربية بين سائر اللغات، وقد نبه إلى هذا وأكثر منه شيخ العربية في زمانه: أ/ محمود محمد شاكر – / –[3].

وقد زاد شيخنا أبو موسى – حفظه الله – أنه قد تبع هذا تغييب ما نشأ حول القرآن من علوم الإعجاز، والبلاغة، والتذوق، فأبعدت عن مقررات التعليم عندنا، فجهلها عشرات الطبقات من أجيال طلاب العلم، تغييباً متعمداً آثماً، فشب على هذا الجهل صغارنا، وشاب عليه كبارنا، وأصبح الحال على ما نراه[4].

وأضيف: أن هذه العلوم الشريفة – المغيبة عن أجيالنا منذ قرن من الزمان – قد دنستها الآن دراسات جريئة متهورة، لَغَت فيها بما لا يصح ولا يقارب، حين جرى " تهجينها " بمقتبسات شائهة لقيطة من نتاج " الألسنيات " المعظمة لدى أصحابها. كل هذا تحت غطاء التجديد ومسايرة الحداثة، وأخواتها..

وأذكّر كل مسلم ذى دين وغيرة بأن أهل العلم الراسخين قد قضوا منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام بأنه لا يجوز فهم القرآن، ولا تذوق بيانه إلا في ضوء علوم مستنبطة من القرآن، أو لغة العرب الذين تنزل فيهم القرآن، لأنه من رب العالمين ﴿بلسَان عَرَبِيّ مُّبين﴾[الشعراء: 195]، فيجب ألا يفهم، ولا يتذوق إلا في ضوء قواعد إبانة هذا اللسان..

هذا وقد كَان السَّلفَ فيَ الْقرون الثلاثة الأولى المفضلة يدركون أسرار فروق الآيات المتشابهة على سبيل الإجمال؛ لذا لم يسأل عنها عامتهم، ولم يكتب فيها خاصتهم، فلما ضعفت القرائح، وانطمست الأذواق، وانتشرت بين المسلمين شبه أهل الزيغ، وتشويشات أهل الإلحاد حول هذه الفروق = جدّ أهل العلم منذ آخر القرن الرابع الهجري في توجيهها، وبيان أسرارها، في ضوء مجموعة من الأسس المستمدة من علوم القرآن، وعلوم العربية..

ولاشك أن لطائف هذا العلم ودقائقه تعود بفوائد عظمى على قارئ القرآن من حيث كشف وجه عظيم من وجوه إعجازه، بما يعمّق إيمانه بألوهية القرآن، وربانية مصدره، تلك الحقيقة التي تعدّ أم عقائد المسلمين في القرآن الكريم، والتي يحاول الملحَدون والطاعنون – قديماً وحديثاً – إثارة الشكوك والفرى حولها؛ لزعزعة اليقين في سماوية هذا الكتاب العظيم.

وإذا كان المسلمون – منذ القرن الرابع – قد ابتلوا بطوائف وفرق قد شغلت بالطعن في القرآن، وألوهية مصدره = فإنّا في زماننا المعاصر قد تكاثرت علينا هذه الطعون بتزايد هذه الفرق المارقة، والطوائف المعادية، الأمر الذي يستوجب مضاعفة الجهد في رد هذه الطعون وتفنيدها، وتحصين جمهرة المسلمين ضد سمومها، سيما وأن أباطيلهم قد وظّف لها من وسائل النشر والإعلام ما جعلها تساقط على رءوس شبابنا كالمطر المدمّر المهلك وأكثر. المسلمين – اليومَ – عقولهم مفرغة من هذه العلوم الشريفة، التي تبصّرهم بحقيقة ما يلقى عليهم من فتن، وتكشف لهم زيفها وباطلها.

من أجل هذا وجب تجديد الكتابة في علم مشتبه النظم القرآن، وعلم المناسبة القرآنية، وعلم المفردات القرآنية، وماله صلة بهذه العلوم؛ حتى يكون المسلمون في عافية من هذا البلاء المشار إليه سابقاً، ويكونوا على دراية مناسبة بعلوم إعجاز القرآن الكريم، وتجديدها على يد علمائهم، بما يلائم أذواق وعقول المعاصرين، ويفيدوا منها في تذوق البيان العالي، والأدب الراقي.

وكل هذا لا يتحقق إلا بدراية واعية بتاريخ هذا العلوم من جهود، ومؤلفات، حتى يتأتى الاجتهاد، والتجديد من أهل العلم، الذين تبوأوا هاتين المرتبتين العظيمتين. بقى بعد هذا: التذكير بأمور، هي الأهم في سياقنا:

منها: أن علم مشتبه النظم علم قرآني إسلامي عربي محض، نشأ وتطور، ونضج بعقول وأقلام علماء المسلمين، وليس هناك مجا ل البتَّة للتشويش على أصالة هذا العلم، كما شوشوا على أصالة علوم أخرى كالنحو، والبلاغة، والمعاجم، والفقه.

ومنها: أن منهج الغرناطي في " ملاك التأويل " ردٌّ على من روج لفرية جمود البلاغة العربية وجفاف ينابيعها بعد القرن الخامس، وأنه لم يبق فيها إلا الدراسات المحمولة، التي غلب عليها المنطق والفلسفة، وابتعدت عن روح التذوق والتحليل...

كتب هذا: أ/ أمين الخولي، وقد تابعه أكثر تلاميذه من غير تحقيق .. فها هو الغرناطي المتوفى في مطلع القرن الثامن الهجري يكذّب ويفضح هذه الأكذوبة، ويدحضها بما دوَّنه من تذوقات شفيفة، وتحليلات دقيقة في " ملاك التأويل " وهذا ليسَ خاصاً بالغرناطي وحده، بل إن عمله المبرور هذا له نظائر كثيرة في حواشي الكشاف والبيضاوي، وشروح الحديث، وشروح عيون الشعر.

ومنها أن تطبيقات علوم " مشتبه النظم، والمناسبة والمفردات " يكْمن فيها منهج تحليل شامل ودقيق للنصوص، عكس ما يشاع في الأوساط الجامعية والثقافية من أن استيراد مناهج تحليل غربية ضرورة لابد منها، بسبب خلو التراث العربي من مناهج التحليل فها هو المنهج ".

ومنها: خطأ ما أشيع من أن علوم الإسلام والعربية قد أصابها العقم، ولا مجال فيها للتجديد فها هو الغرناطي (ت 708 هـ) يجدّد تراث سلفه الإسكافي (ت 421هـ)، ويزيد عليه، وينص على ما زاد. وهاهم بعض معاصرينا كالسامرائي، والخضري، قد جدودوا بعد الشيخين، معتمدين على أسسهما، مستمدين من ترائهما وتراث غيرهما ما جددا به رواء هذا العلم، وكانا مجمع الأصيل التليد مع الطريف الجديد..، بل قد زاد السامرائي فجعل علم المتشابه من ثقافة غير المختصين [5].

ومنها: أن علم المتشابه – مع علمي المناسبة والمفردات كاشفا الخطأ مقولات شهيرة جهر بها " روادنا " الأفاضل، وبثوها في كتبهم، وأذاعها كبار تلاميذهم من بعدهم، حيث قالوا إن علومنا مبنية على النظرات الجزئية التي تعني بالبيت والبيتين والجملة والجملتين [6] ، وتخلو من النظرات الكلية العامة، التي تؤسَّس عليها الضوابط اليقينية المستخلصة بعد استقصاء.

وهذا كله وهم وباطل أدى إليه أن " روادنا الأماثل " قد تتلمذوا على يد المستشرقين وكتبهم، أولئك الذين لا هم لهم إلا إشاعة مثل هذه الفري والأباطيل حول تراث المسلمين.

وقد كتب " روادنا " هذا وهم من في صدر حياتهم العلمية قبل الثلاثين؛ لذا تراجع أكثرهم عن هذه الفري في كتبهم

التي كتبوها في عقودهم الأخيرة – ولكن جوقَات " الباطل عتّمت على هذا الرجوع، بل أعادت نشر الكتب الأولى؛ لأن فيها ما يساعدهم على تزيين الأباطيل، وتوظيفها في تضليل شبيبة الدارسين.

تاريخ علم مشتبه النظم القرآني

لقد بدأت الكتابة في أصـــول علم المشـــتبه بأقلام أئمة القراء في القرن الثاني الهجري، كما هو الحال عند حمزة بن حبيب الزيات (ت 158هـــ)، ونافع بن عبد الرحمن (ت 170هـــ) والكسائي (ت 189هـــ)، وخلف بن هشام الأزدي (ت 229هـ).

ثم كانت الحلقة الوسطى لدى " ابن المنادي " (ت 336هـــ) في كتابه " متشابه القرآن العظيم " وهو – وإن كان قارئاً تابع سابقيه من الأئمة المذكورين سلفاً في الحصر والضبط = إلا أنه قد اجتهد في أمر يعد إرهاصاً بما تم بعد قرن – تقريباً – على يد رائد هذا العلم "، أي أبي عبد الله الإسكافي (ت 421هـــ) صاحب أول كتاب منهجي في دراسة هذا العلم الشريف.

ومن إشـارات ابن المنادي التي تعد إرهاصـاً لما كتبه أبو عبد الله الإسـكافي على منهج متكامل = حديثه عن تكرار الجمل، وما فيه من لفتات بلاغية حيث يقول: " وكان في ترداد قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾خاتمة ذكر تعداد انفراده – تعالى جده – بالربوبية، وأُنْعمه السوابغ على البرية، وترهيبه الأفئدة بذكر الجَحِيم، وتَشويقه النفوس بوصف جنات النعيم، وتعبيره بتمتع رزقه من كفَر به[7] ، وتناءى بجانبه عن طاعـته = ما يخشع المقلين، وتأكد الحجـة على العتاه المذنبين...

والقول في كل مكرر بإحدى الأبنية نحو القول في هاتين الآيتين الدائرتين في الموضـــع التي كررت فيه من هاتين السورتين... " [8].

ومن هذه الإشارات حديث ابن المنادى عن تكرار القصص، وما فيها من ألفاظ متغايرة، حيث يقول: " فأما ترداد أنباء الرسل وأممها، وغير ذلك من القصص المعادة في سورها = فمقول بحسب ما فطر الله عليه العرب.

من ذلك: إبدال بعض كلامه ببعض، وزيادة بعضه في الشرح على بعض.. وآئل ذلك كله إلى معنى واحد...

انظر إلى قوله في قصـة صـالح ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، ثم ثنَّى، فقال ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ثم ثلث فقال ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾فأمر بتوعدهم بعذاب كائن، وكل كائن قريب، ثم وصـــف ذلك العذاب، فقال (أليم) أي: وجيع للقلوبً والجُثث، ثم لم يُعلم أي وقت هو من الزمن ليبغتهم؛ إذ بغتات العذاب أنكأ، وأهول من توقيته.

فقال: ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾وعظيم اليوم العظيم قدر ما يريد أن ينزل بهم فيه " [9].

ففي الموضع الأول رصد ابن المنادَيً ظاهرة تكرار آية ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾تسع مرات في سورة " المرسلات "، وعدّها " خاتمة انفراده بالوحدانية، وتعداد نعمه السـوابغ، وترهيبًا.، وتشـويقه... "، وكلام ابن المنادي هذا مهد للإسكافي القول بأن التكرار هنا لتعدد المتعلق، فلا تكرار في الحقيقة.

ثم إن ابن المنادي عقّب هذا بما يشبه الضابط العام بقوله: " والقول في كل تكرار بإحدى الأبنية نحو القول في هاتين الآيتين "، أي: في كل مكرر زيادة ليست فيما قبله؛ لإفادة معنى جديداً ليس مفاداً من الجملة الأولى.

وكذلك الإرهاص الثاني الموجود فيما رصده ابن المنادي تكراراً للقصة الواحدة في أكثر من سورة قرآنية، وفي كلٍ منها بعض تغاير بإبدال لفظة، أو زيادة... مع كونها جميعاً آيلة إلى معنى واحد.

وتطبيقه هذا على وصف عذاب ثمود بثلاثة أوصاف (قريب، عظيم، أليم) ومحاولة توجيه اختلافها بما يئول إلى معنى

واحد. وهذا – وإن لم يرتق إلى درجة كلام الإسكافي – إلا أنه– بلا ريب – داخل في تراث سلفه، الذي أفاد منه أبو عبد الله، ونمّاه، وطوره، وضبطه، وأدخله في منهجه الذي هُدي إليه، فأصبح به قدوة رجال هذا العلم جميعهم، بكتابه " درة التنزيل وغرة التأويل ".

فبهذا الكتاب نضج علم متشابه النظم على يد ذلكم الإمام، الذي جمع بين الريادة والعبقرية، وهو مالم يتحقق إلا لدى أفراد من أئمة العلم في تاريخ علوم الإسلام، كسيبويه (180هـ) في علم النحو، والشافعي (204هـ) في علم أصول الفقه، وابن جني (394هـ) في علم فقه العربية، وعبد القاهر (474هـ) في علم البلاغة.. فلم يسبق واحد من الخمسة الكرام بمن فرى فريهم، ولم يلحق هؤلاء الخمسة في علومهم بمن أدرك مراتبهم أو ضاهاها؛ لأن مواهبهم لم تتكرر، وإن وجد ما يقاربها، حيث لم تهيأ لهم البيئة العلمية التي تهيأت لهؤلاء الرواد.

وقد تمثّلت ريادة الإسكافي لهذا العلم في أنه وضع في " درة التنزيل " منهج دراسة شواهده على أسس وخطوات لم يسبق إليها، حيث تتبع مئات الآيات التي احتوت على عشرات من ظواهر التشابه، مجيلاً فكره الدقيق، مستشعراً بحسه النافذ لطائف التلاؤم، ودقائق التناسب بما يعد ترسيخاً لضوابط الفهم، وتأصيلاً لقواعد البحث، مستعيناً على هذا كله بخلاصة ما استوعبه من علوم القرآن والعربية، ومن قبل هذا مستهدياً ببصيرة نافذة، وهبت إحساساً خاصاً، لم يحفظ لنا تاريخ هذا العلم له نظيراً إلى يوم الناس هذا...

كما تحققت عبقرية هذا الإمام في أن ما وجه به فروق النظوم المتشابهة لم يزلْ من أدق وأصفى ما دون في توجيه شواهد هذا العلم بأقلام أعلامه الكبار.

ففي كلام أبي عبد الله اكتناز عجيب، ودقة متناهية، لم تتوفر إلا في كلام رواد العلوم المشار إليهم سابقاً. ومن المؤسف أن تاريخ علوم القرآن لم يحفظ لنا من مؤلفات هذا العلم إلا القليل – مثل:

- البرهان في متشابه القرآن للكرماني محمود بن حمزة (ت 500هـ).
- كشف المعاني في المتشابه من المثاني لبدر الدين بن جماعة (733هـ).
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا الأنصاري (926هـ).

وهذه المؤلفات الثلاثة – على فضل كاتبيها رحمهم الله – لم تتضمن اجتهاداً يقرن بجهد الإسكافي؛ إذ إن أكثر ما فيها اختصار لما كتب، وما زيد عنه فيها فهو قليل، لم يتقدم بهذا العلم.

على أنه توجد إشارات قيمة لدى عدد من المفسرين أفاد منها علماء المتشابه، لوجود مسائل مشتركة بين الفريقين، لاسيما عند الزمخشري في " الكشاف " ففيه من توجيهه شواهد المتشابه ما هو قمن بأن يفرغ له باحث جاد، فيجمع شواهده، ويحدد منهجه فيه، ويوازن بين آرائه وآراء إمامي المتشابه: " الإسكافي والغرناطي "، خاصة وأن أولهما سابق عليه، وثانيهما لاحق به، فيكون هناك مجال أوسع للموازنة.

ومن بلاغة الكشاف ما يدخل في شواهد المتشابه بظاهرة التقديم والتأخير في قوله تعالى:﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: 2، 3] [الكشاف: 46/3، 47]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: 61] [الكشاف: 243/2] و ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: 3] [الكشاف: 279/3].

ومن شـــواهد الكشـــاف في المتشـــابه بظاهرة الإثبات والحذف لحرف الجر: قوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُم ﴾ [إبراهيم: 10] [الكشـــاف: 369/3]، ومثلها [الأحقاف: 31] [الكشـــاف: 527/3]، و [نوح: 3، 4]، والحـــــــــذف في قـــــــــولـــــــــه: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[الصف: 10 – 12] [الكشاف: 99/4، 100].

ومثلها في: ﴿لجعلْناه حطَاما ﴾﴿جعلْناه أُجاجا ﴾ في [الواقعة: 65، 70] [الكشاف: 57/4].

ومثلها في ﴿أَلَمْ أَقُل إِنَّكَ ﴾﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ ﴾ [الكهف: 72، 75] [الكشاف: 493/2].

ومن شواهد المتشابه بتغاير المفردات في تفسير الكشاف ﴿وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾﴿ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: 11، 13] [الكشاف: 181/1، 182].

ومن شواهد المتشابه في الكشاف بتغاير المفردة ﴿ يعلَمونَ ﴾﴿يفْقَهونَ﴾[الأنعام: 97، 98] [الكشاف: 39/2، 40].

ومثلها ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[النحل: 10، 12، 13] [يراجع: الكشاف: 403/2، 404].

ومن شواهد المتشابه في الكشاف بتغاير الحروف قوله تعالى ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله ﴾ [البقرة: 112]، وقوله ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [لقمان: 22] [ينظر: الكشاف: 305/1، 235/3].

ومثله تعدية "آمن " باللام والباء ﴿يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: 61]، ومثلها كثير [ينظر: الكشاف: 198/2].

وقد كان لكلام الزمخشري صدى في كل من تأثر به، خاصة أبا السعود العمادي، والآلوسي، والطاهر بن عاشور فالذي يجمع كلام كل منهم يجد لديهم جهوداً عظيمة في هذا المجال تثريه في التطبيقات والضوابط. بقي الحديث عن الذي تبوأ رتبة الاجتهاد والتجديد في هذا العلم، وهو العلامة الغرناطي وهو الذي سوف أبسط القول عن جهود فيما يلي ـ إن شاء الله ـ .

الاجتهاد والتجديد في علم مشتبه النظم

لقد تحققت رتبة الاجتهاد في هذا العلم على يد العلامة الغرناطي (ت 708هـ)، صاحب كتاب " ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ". هذا الكتاب أوسع ما ألف في هذا العلم في تراثنا، وقد نال به مؤلفه درجة الاجتهاد في بابه، وحاز المرتبة الثانية بعد إمامه " الإسكافي ".

ولقد قرر كل من تعرض لتاريخ هذا العلم وكتبه على علو درجة الرجلين فيه، إلا أن بعضهم مال إلى تفضيل " الملاك " على " الدرة ". وأظن أن هذا ليس على إطلاقه؛ لأن هذا التفضيل إن كان سببه مراعاة كثرة الاستقراء للمواضع، وتفصيل توجيهها فلا مراء في توفر كل هذا في" الملاك " لكن الرائد قد فاق خلَفه بأنه أول من درس مواضع هذا العلم على منهج واضح، وحلل شواهده على أسس علمية قوية، مع صياغة دقيقة راقية مكتنزة، وحشد كثير من فوائد العلوم ودقائقها، شأن الرواد الأربعة السالفة ذكرهم [10].

على أنه يجب ألا يقف النظر في جهد الإمامين عند التفضيل لهذا أو لذاك، فخطر هذا هين عند أهل العلم .. بل

الأهم أن تتغيا الموازنة بين الجهدين بيان مخايل النجابة والريادة لدى المؤسس الرائد في تأسيسه علم المتشابه على علوم ومعارف أصيلة، لا يتأتى لمستشرق أو مستغرب أن يتهور فيزعم نسبة هذا العلم لغير المسلمين العرب، أو يجازف أحدهم –كما هو شأنهم – فيرجم بأن فيه نفساً يونانياً، أو هندياً، كما تجرأوا على كثير من حقائق تاريخ علوم العربية والإسلام فغبروا، وشوشوا حول أصالتها بما خدع به، وروج له كثير من أبناء العرب والمسلمين في القرن الماضي، ولا يزالون !!

كما يجب أن تتغيَّا الموازنة تحديد إضافات التابع لإمامه الرائد، وتقييمها، ففي هذا ما يضيء لنا الطريق إلى تحقيق قضية مَلْبسة تناوشتها أكذوبات، وتهويشات، وتضليلات، وهي: قضية تحديد المنهج الأمثل في تجديد علوم السلف، وإثرائها، وتطويرها ..

فلقد جدد الغرناطي علم متشابه النظم بعد الإسكافي بمنهج سديد، على سنَن لاجب، حيث نسل خيوطاً من نسج شيخه، وأسس على علومه التي وجه في ضوئها، وسدّى هذا بفوائد ومعارف من علوم أخرى، لم يوظّفها إمامه، فنتج عن هذا: التطبيق الرائع، الذي وسع به أبو جعفر دائرة هذا العلم، فصار به قميناً برتبتي الاجتهاد والتجديد.

وصنيع الغرناطي هذا أبر وأسدّ من " تبديد " معاصرينا، الذين استهان أكثرَهم بذخائر تراثهم، تقليداً من غير تحقيق. فجدّوا في استبدالها بنظريات نقدية ولسانية وافدة، صيغت بأقلام عباقرة في لغاتهم، وهي وإن اشتركت مع العربية في قواسم مشتركة من عناصر الإبانة والتوصيل، إلا أنها تختلف معها في غير قليل مما اختصت به كل لغة، مختلفة مع غيرها في نشأتها، وتاريخها، وقواعدها، وآدابها.

وهذه حقائق لا يماري فيها من به طرْقٌ، وذَرْوٌ من عقل، ولكنّ واقعنا العلمي والأدبي والثقافي تضبطه توجيهات أخرى من غير حقول العلم، والأدبَ، والثقافة.

أما في العصر الحديث: فقد كان الاهتمام بدراسة " متشابه النظم " إلى عهد قريب مقتصراً على تحقيق كتبه التراثية، " كالدرة، والملاك، والبرهان، وكشف المعاني ... " ثم اهتمت الدراسات الجامعية بهذا العلم، وكُتبت حوله رسائل عديدة، وإن شابها عدم توحُّد مناهجها، وتفاوت درجات الإتقان فيها، حسب تفاوت مواهب كاتبيها وجهودهم، ثم إهمالها حبيسة خزانات الكتب للتراث ثم الأَرضة.

وإذا كثر هذا في الدراسات الجامعية إلا أننا لا نعدم فيها جهوداً نافعة، ومن خير هذا القيم النافع ما دبّجه أستاذنا المرحوم الدكتور/ محمد الأمين الخضري.

فقد جمع بين منهجي " مشتبه النظم، والمناسبة " فيما ألّف من رسائل وبحوث، نشرت كلها[11]، فعم بها النفع ، ومنها:

- الواو ومواقعها في: النظم القرآني، ط: وهبة 1436هـ 2015م.
- من أسرار حروف الجر في: الذكر الحكيم، ط: وهبة 1989م.
- الإعجاز البياني في: صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للأفراد والجمع في القرآن – ط: مطبعة الحسين 1993م.
- من أسرار حروف العطف في: الذكر الحكيم (الفاء وثم)، ط: وهبة 1993م.
- من أسرار المغايرة في: الفاصلة القرآنية، ط: وهبة 1438هـ 2017م.
- كسر الإيقاع ودلالته في: الفاصلة القرآنية، ط: وهبة 1438هـ 2017م.

وكلها –كما ترى – تطبيق وتذوق عميق في سوس دلالات هذه الحروف والصيغ، وهي دراسات مبنية على

استقصاء، وتصنيف، وتحليل، واستنباط، وفيها مناقشات وترجيحات بين أقوال أهل العلم، ولا تخلو من استدراكات على مقولات لهم شائعة، مع حشد الأدلة والبراهين على مواقف القبول والرفض والترجيح.

هذا وغيره مما هو أدق وأسخى ركْز دفين في مؤلفات الأستاذ الدكتور/ محمد الأمين الخضري – طيب الله ثراه – الذي قال عنه شيخه العلامة محمد أبو موسى:" محمد الأمين الخضري الذي علمته وهو صغير، وتعلمت منه وأنا كبير "(12). (13)

وهناك جهد محدث تفرد صاحبه بين معاصريه، ويعد من خير ما كُتب في " مشتبه النظم " بعد الغرناطي، ذلكم ما كتبه د/ فاضل صالح السامرائي في مؤلفاته القيمة.

- أسرار البيان في التعبير القرآني.
- أسئلة بيانية في القرآن الكريم.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل.
- معاني النحو 1 – 4
- معاني الأبنية في العربية.
- على طريق التفسير البياني 1 - 3.

ففي هذه الكتب لفت دقيق إلى كثير من لطائف شواهد المتشابه ودقائقها، وهو جهد موفق مشكور على طريق الاجتهاد في هذا العلم وغيره من علوم الإعجاز.

ومما يزيد صاحبه فضلاً أنه لم يجرفه طوفان اللسانيات، التي جرت معتنقيها إلى تطبيق مناهجها على القرآن الكريم – ضلالاً وإضلالاً – بل سلك السامرائي مسلك أولى العقل الراشد، فاجتهد فيما كتب على سن الإسكافي والغرناطي ، وأئمة العربية والتفسير.. ونعما ما صنع ... ولا يزال الميدان فسيحاً فسيحاً أما كل مجتهد، واع، بصير.

وفيما يلي عرض نماذج مما ذكره شيوخ هذا العلم؛ لكي يستفاد منها في كيفية تطبيق المنهج، والاتكاء على الأسس، والسير في خطوات التحليل والتوجيه ... وهذا هو صلب علم مشتبه النظم، وهو مهم جداً – ولكن الأهم هو الاستضاءة بهذا كله في تجديد هذا العلم، وإن كان هذا من عمل الشيوخ الراسخون، فلا يعبث به المبتدئون ولا المتوسطون.

نماذج من مواضع المتشابه

حرصت في اختيار هذه النماذج على أن تكون من الشواهد التي تعددت فيها وجهات نظر أئمة هذا العلم، سيما الإسكافي والغرناطي؛ كي تتضح سعة آفاق علم مشتبه النظم، وتبين فيه معالم الأصالة والتجديد، وليكون في عرض أكثر من وجهة إغراد لنجباء أهل العلم في الاجتهاد بعد تحصيل شرائطه، والتحلي بآدابه.

- من مواضع المتشابه: ما جاء في آية [آل عمران: 126] ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم به وما النَّصر إلاَّ من عند الله الْعزيز الْحَكيم﴾.

وَفي آية [الأنفَال: 11] ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ به قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

رصد الإمامان " الإسكافي والغرناطي " تغاير التعقيب في الآيتين، مع ظواهر أخرى.

فالنظم ورد في آل عمران على نهج الوصف ﴿... إلاَّ من عند اللّه العزيز الحكيم﴾على حين ورد في الأنفال على نهج الخبر المستأنف ﴿إنَّ اللّه عزيز حكيم﴾.

ومبني التوجيه عند أبي عبد الله: أن القصد العام المشترك هو إعلام المخاطبين أن النصر ليس من قبل الملائكة المنزلين من السماء، ولا من جهة العدد والعدّة التي أُمر المسلمين بإعدادها، ولكنه من عند الله، القاهَر الذي لا يغلب، الحكيم الذي يضع النصر موضعه...

وأساس التوجيه عنده في النظر إلى ترتيب النزول: فآية الأنفال نزلت في يوم بدر، وهو السابق، وقد بين الله ذلك فيه بلفظ جعله كالعلة لكون النصر بيده: ﴿إنَّ اللّه عزيز حكيم﴾، ففصل ذلك في خبرين على الأصل الواجب في توفية كل معنى حقه في البيان..

وآية " آل عمران " نزلت في قضية يوم أُحد – وهو اللاحق – ، وقد حصل البيان فيما جعل خبراً عن النصر الأول، فاقتصر من ذكر مثله في اليوم الثاني اكتفاء بخبر واحد، يجري عليه معنى الخبر الثاني مجرى الوصف، لاختصار المعنى عن البسط، اعتماداً على ما فصّل في الخبر الأول، فكان الاختصار بالثاني أليق، وكان الثاني [في النزول] به أحق(14).

واجتهاد الغرناطي يبين في أنه نظر إلى السياق المقالي، لا إلى السياق المقامي، الذي نظر إليه الإسكافي، حيث ذكر أبو جعفر أن آية الأنفال تقدم فيها أوعاد جليلة، كقوله – تعالى –: ﴿وإذْ يعدُكُم اللّهُ إحدَى الطَّائفَتيْن أنَّهَا لَكُمْ ﴾ [7]، ﴿ويريدُ اللّهُ أن يُحقَّ الحقَّ بكَلماته ويَقْطَعَ دابرَ الْكَافرين ﴾[7]، ﴿ليُحقَّ الْحَقَّ ويُبْطلَ الْبَاطلَ ولَوْ كرهَ الْمجرمونَ﴾[8].

فهذه أوعاد علية، لم يتقدم إفصاح بمثلها في آية آل عمران، فناسبها تأكيد الوصفين العظيمين، من قدرته – جل وتعالى – على كل شيء، وحكمته في أفعاله، فقال: ﴿إنَّ اللّه عزيز حكيم﴾.

ولما لم يقع في آية آل عمران إفصاح بما في آية الأنفال = وردت الصفتان تابعتين دون تأكيد، وجاء كل على ما يناسب " (15).

فدلالة التوكيد المعنوي – عند الإسكافي –مفادة من ورود المعنى في نظم الأنفال في جملتين توافتا عليه، وهذا – بلا ريب –آكد من وروده في جملة واحدة، كما هو الحال في نظم آل عمران.

على حين نظر الغرناطي إلى التوكيد الظاهر المفاد بإن، وهي جهيرة في إفادته، بل هي " أم الباب "كما أطلق عليه أئمة النحو.

فموجب التوكيد – عند الإسكافي – في نظم الأنفال هو قصد توفية المعنى حقه من البيان؛ لوروده أولاً من حيث ترتيب النزول. وموجب عدم التوكيد عنده في نظم آل عمران الاكتفاء بما ورد أولاً، وتحقيقاً للاختصار في الثاني، وهذا مراعاة للسياق المقامي. وجدّد أبو جعفر بمراعاة السياق المقالي، فذكر أن موجب التأكيد في الأنفال هو سبق جملة التعقيب بأوعاد كثيرة، استلزمت توكيد الوصفين.. وهذا مما قرره الشيخ عبد القاهر (رحمه الله) بقوله: " ومما يحسن ذلك فيه ويكثر: الوعد والضمان، كقول الرجل أنا أعطيك، أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك أن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به، فهو من أحوج شيء إلى التأكيد " (16).

أما نظم آل عمران فلما خلا سياقه المقالي من الأوعاد فلم يحتج إلى تأكيد، والسياق المقامي بمراعاة ترتيب النزول

الذي اعتمد عليه الإسكافي أساس معتمد في توجيه المتشابه، وإن كان قليلاً عند الأئمة..

والسياق المقالي باستعراض أجزاء النص – سباقاً ولحاقاً – هو الذي اعتمد عليه الغرناطي، وهو أكثر جرياناً على أقلام علماء المشتبه، وفيه فضيلة الكشف عن ترابط النظم في السياق كله، حيث تجاوزت نظرة أبي جعفر – هنا – جملة الشاهد لتشمل آيات عديدة سابقة عليها.

وصنيعه هذا جدير بالمتابعة والتطبيق؛ لما فيه من فوائد عديدة، تعود على الدرس البلاغي التحليلي .. ومن قبل: فإنها نظرة تنفي عن البلاغة العربية " فرية " اقتصار نظرتها التحليلية على الجملة والجملتين، دونما فوقهما.. (17).

وأضيف: أن أبا جعفر قد نظر إلى السياق البعيد – نسبياً – وللدارس أن ينظر إلى ما هو أقرب من السياق الذي ذكره الشيخ من قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾[الأنفال: 11]فهذه خمسة نعم كبرى يمتن بها القرآن على أهل بدر، وكلها من الجلائل التي تستوجب تعقيبها بخبر مؤكد، يزيد اليقين في أنها من الله، وليست من غيره، فتقتضي شكره المتجدد، وتعتب على من جادل في شأن الأنفال، مع كونه من المترددين في أمر الخروج إلى الجهاد.. ويفضَّل أن يجمع دارس المشتبه بين نظرتي الإمامين، ففي هذا مراعاة للسياقين المقامي والمقالي، وفيه إثراء للدلالة، وحشد للطائف. ومن نماذج مشتبه النظم الجامعة بين الريادة والتجديد تحليل الإمامين لأسرار التشابه بين العطف وتركه في قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ *كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)[يونس: 32، 33].

وقوله ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر 5، 6] حيث التقى الإسكافي والغرناطي في التوجيه المعنوي للوصل وتركه في (وَكَذَلِكَ)، (كَذَلِكَ)، بيد أن لكل منهما متجهاً في توجيه هذا التشابه بين النظمين:

فالإسكافي ارتأى أن الفصل أليق في موضع يونس " لأن القصة بعد "كذلك " هي التي قبلها، فهي مرتبطة بها [أي بالإشارة] بعودها إليها، وبكاف التشبيه، فاستغنت بهذين الرابطين عن حروف العطف، فهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون = هم الذين خوطبوا بقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[يونس: 31].

وليس كذلك ما في سورة " المؤمن "؛ لأنه – وإن تعلق به، وبكاف التشبيه – فإنه ينقطع عنه بأن المذكورين بعد (كذلك) غير المذكورين قبلها. ألا ترى أن قوله – تعالى –: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ خبر عن الذين كانوا قبل النبي صلى الله عليه وسلم. وما بعدَ قوله ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ إنما هو وعيد من في عصره –ﷺ– فلما انقطع ما بعد (كذلك) هنا عما قبلها احتاج إلى الواو، مالم يحتج إليها في سورة يونس عليه السلام (18)

على حين قال الغرناطي موجهاً لآية يونس " ولما لم يتقدم قبل هذه الآيات فيما اتصل به مقال من ذكر، ممن حقت عليهم كلمة العذاب = أتى بقوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ بصورة الاستئناف غير معطوف؛ إذ لم يتقدم من يعطف عليه. فلما تقدم في هذه السورة [غافر] ذكر من حقت عليه كلمة العذاب = عطف عليه ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ.. ﴾ ولم يتقدم

ذلك في يونس " [19].

فالنظرتان هنا متغايرتان من حيث موجب العطف وتركه:

فالإســـكافي نظر إلى ما هو مقرر عند النحاة والبلاغيين من كون التغاير مع التناســـب بوجه من الوجوه موجباً للعطف، وكون عدم التغاير مع التناسب موجباً تركه.

ففي يونس: لم يتحقق التغاير بين ما قبل (كذلك) وما بعدها، فلزم ترك العطف، وفي غافر تحقق التغاير بين ما قبل (وكذلك) وما بعدها، فلزم العطف..على حين نظر الغرناطي إلى تحقق التناسب والتجانس فيما قبل (وكذلك) مع ما بعدها، فثبت العطف، وفي نظم يونس لم يتقدم على (كذلك) مجانس لما بعدها، فتحتم ترك العطف،وهذا أيضـــاً مما هو مقرر عند أهل العلم[20].

وهاهنا فوائد يحسن التنبيه إليها:

أولاها: مفادة من قول الإسكافي – موجهاً ترك العطف في نظم يونس –: " إن القصة بعد (كذلك) هي التي قبلها، مرتبطة بعودها [أي الإشارة] إليها، وبكاف التشبيه، فاستغنت بهذين الرابطين عن حروف العطف".

فهذا تصريح جهير بإثبات نوعين من الربط نَدَر حديث علماء المتشابه والمناسبة عنهما هما: الربط باسم الإشارة، والربط بكاف التشبيه.

فأما الأول: فقد نبه الإسكافي إليه في موضع آخر بما هو أصرح مما ذكره هنا، وذلك عند تعرضه لآيتي [الشورى: 22، 23] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... ﴾.

فقوله (ذلك) وإن انقطع عنَ الأول في اللفَظ، فإنه مَتصَل به مَن طريق المَعنىَ، وكأنه قال: لهم ما يشاءون عند ربهم، مشار إليه بأنه الفضل الكبير. وقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾أي: ذلك نعم أجر العاملين، والمعنى المشار إليه يتفضل على أجور العاملين " [21]. ومما يلحق بفائَدة الإمام الإسَكافي هنا، ويثريها ما يفاد من كلام شيخنا أبي موسى في قوله: " والجملة التي تأتي عقب الكلام مؤكدة له، والتي تتكاثر في القرآن قد ترد بالواو، كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[النمل: 34]، ونجد أمثال هذا في القرآن يأتي بغيرَ الواو كثيرا.

وقد آذنت هذه الواو أن ذلك عادة من عاداتهم، ووجه هذه الدلالة أن الواو تشير إلى المغايرة، فكأنهم يفعلون ذلك، ويفعلون مثله " [22]. وهذا يضاف إلى ما أفيد من تحليل الإسكافي والغرناطي من كون هذا الأسلوب يفيد مع وجود الواو (وكذلك) أن ما جاء بعدها صار ديدنا لمن اتصف به، وأنه ليس خاصاً بمحل الشاهد، بدليل أن إفساد الملوك في القرى المهزومة شأن متكرر في كل زمان ومكان.

وهذا الذي قرره شيخنا الجليل يفتح باباً واسعاً لدراسة نظائر هذا الأسلوب في القرآن، رصداً، وتحليلاً، وموازنة، واستخلاصاً، وهو موضع بحث. وأما الفائدة الثانية من كلام الإسكافي السابق: فهو ما صرح به من الربط بين الجمل بكاف التشبيه، ولم أقف على كلام لأحد من السلف حول هذا، فهو من نوادره وفرائده. فحديث البلاغيين أجمعين عن كاف التشبيه يتعلق بإلحاق أمر بأداة في صورة متنوعة ثم يتبعون هذا تفصيل تنوع الدلالات بشواهد محللة.

أما كون " الكاف " حين تقرن بـــــ " ذلك " تأتي رابطةً بين الجمل الســابقة واللاحقة فهو جدير بأن يســتوقف الدارســين، حتى يســتبينوا طبيعة هذا الربط، وتنوعه، ودلالة كل نوع فيه.. وهذا مما لا يرمى فيه بالرأي الفطير، ولا تجدي فيه مقولة طائرة عجلة، بل هو قَمنٌ بتوفر دراسة عاكفة، محتسبة، واعية، مستقصية، حتى تستفتح مغاليقه،

فتلوح حقائقه ورقائقه.

النتائج:

إن علم مشتبه النظم من فروع علوم إعجاز القرآن وهو إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة. وهو علم أصـــيل من العلوم العربية، لقد قدم هذا البحث عدة نماذج مشـــتبه النظم القرآني، وقدم نبذة من تاريخ تدوين علم مشتبه النظم القرآني لدي اللغويين والمفسرين والبلاغيين وآرائهم، كما نجد لاحقا كتبا متخصصة في هذا العلم بداية من القرن الخامس الهجري إلى القرن العاشر الهجري.

ثم ذكر البحث جهود أصـحاب الاجتهاد والتجديد في علم مشـتبه النظم كالغرناطي صـاحب كتاب ملاك التأويل، والإســكافي صــاحب كتاب: درة التنزيل وغرة التأويل. ومن العصــر الحديث ذكرنا جهود محمد الأمين الخضــري، وفاضل صالح السامرائي. وفي النهاية قدم البجث تحليل النماذج من مشتبه النظم القرآني.

المصادر والمراجع:

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن، أبو الفضل إبراهيم الزركشي، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1957م. 112/. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، الطبعة الأولى 1370هـ/1951م. 390/3.

See: Al-Burhān fī ʿŪlūm Al-Qurʾān, ʾAbū Al-Faḍl ʾIbrāhim Al-Zarkashi, Dār Iḥyāʾ al-Kutub al-ʿIlmiyyah, Bairūt, 1st Ed. 1957. 1/112. Al-ʾItqān fī ʿŪlūm Al-Qurʾān, Jalāl Al-Dīn, Al-Suyūṭī, Matba'ah Muṣtafā Al-Bābī Al-Ḥalabī, Cairo, 1st Ed. 1370H/1951. 3/390.

(2) جمع كثيراً من هذا الزركشي في البرهان في علوم القرآن، 112/1 – 155، وإن لم يحلل إلا القليل.

See: Al-Burhān fī ʿŪlūm Al-Qurʾān, 1/112-155.

(3) ينظر: قضية الشعر الجاهلي، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1997م، ص: 102-103.

See: Qaḍiyyah Al-Shiʿr Al-Jāhilī Maḥmūd Muḥammad Shākir, Matbaʿah Al-Madanī, Cairo, 1st Ed. 1418 H/ 1997, pg: 102-103.

(4) من أسرار التعبير القرآني، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، 1416هـ/ 1996م، ص: 11 – 18.

Min ʾĀsrār Al-Taʿbīr Al-Qurʾānī, Muḥammad ʾĀbū Mūsā, Maktabah Wahbah, Cairo, 1416H/1996.pg:11-18.

(5) جلست مع مسلم واع غير متخصص في علوم الإعجاز عدة مرات، فوجدته معجباً أيما إعجاب بما يلقيه السامرائي على فضائية "الشارقة"، بل أخبرني أنه يجتمع على سماعه هو وأولاده – خريجو كلية التجارة – فسررت بهذا جداً، وودت لو شاعت هذه الثقافة بين المسلمين غير المختصين في علوم الأعجاز... وهذا متمنى شيخنا أبي موسى. سمعته منه في داره منذ عشرين عاماً – تقريباً – حين تمنى تبسيط علوم البلاغة والإعجاز، حتى يستوعبها عامة المسلمين؛ لأنهما علمان متصلان بالعقيدة في مصدر القرآن الإلهي – وهذه من أمهات عقائد المسلمين، ويزداد اليقين فيها لمن أتقن علوم الإعجاز.

وقد وفّق الله شيخنا بعد عشرين عاماً لهذا حين شرح "أسرار البلاغة " و "دلائل الإعجاز" على عامة المسلمين في رواق المغاربة بالجامع الأزهر الشريف، ويتابعه الآلاف على قناة الأزهر.

(6) انظر: البلاغة: تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة، 2008م، ص 379. النقد المنهجي عند العرب، محمد مندور، دار نهضة مصر، ص:49.

See: Al- Balaġah: Taṭawwur wa Tārīkh, Shauqi Ḍaif, Dār Al-Maʿārif, Cairo, 9th Ed, 2008. pg: 379. Al-Naqd Al-Manhajīʿinda Al-ʿArab, Muḥammad Mandūr, Dār Nahḍah Miṣr. pg:49.

(7) هكذا في المطبوعة، واضطرابه واضح.

(8) متشابه القرن العظيم، ابن أبي داود المنادي، ت: عبد الله بن محمد الغنيمان، مكتبة لينة، دمنهور، 1414هـ/ 1993م، ص: 228.

Mutashābih Al-Qarn Al-ʿAẓīm, ʾIbn ʾAbī Dāwūd Al-Munādī, Researched by ʿAbdullah bin Muḥammad Al-Ġunaimān, Maktabah Līnah, Dimanhūr. 1414H/1993. pg: 228.

(9) السابق. ص: 228–229.

Ibid. 228–229.

(10) ينظر: البرهان في علوم القرآن، 112/1. والإتقان في علوم القرآن، 390/3. من بلاغة المتشابه اللفظي، محمد بن علي الصامل، دار كنوز إشبيليا، الرياض. ص:24.

Al-Burhān fī ʿŪlūm Al-Qurʾān, 1/112. Al-ʾItqān fī ʿŪlūm Al-Qurʾān, 3/390. Min Balaġah Al-Mutashābih Al-Lafẓi, Muḥammad bin ʿ Ali Al- Ṣāmil, Dār Kunūz ʾIshbiliyah, Riyāḍ. pg: 24.

(11) تم النشر في مكتبة وهبة بالقاهرة، وغير قليل منها على المكتبات الرقمية.

(12) دلالات التركيب، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الرابعة 1429هـ/ 1980م. ص: 343.

Dalālāt Al-Tarkīb, Muḥammad ʾĀbū Mūsā, Maktabah Wahbah, Cairo, 4th Ed. 1429H/1980.pg: 343.

(13) هذه المقولة لم يتوج بها الأستاذ العلامة رأس أحد من تلاميذه – على فضلهم وكثرتهم – إلا تلميذه الخضري، ويزداد عجبك عندما تعرف أن الشيخ أبا موسى أثبت هذه المقولة في كتابه "دلالات التركيب" في طبعته الرابعة عام 1429هـ 1980م أي قبل وفاة الخضري –رحمه الله– بأكثر من إحدى عشر سنة ولا أنسى تهلل وجه التلميذ "الخضري"، وسروره، وتواضعه لما أعلمته بهذه المقولة، يوم أن كنت زائراً له في داره –رحمه الله – وعمر الدار بذريته.

(14) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، الخطيب الإسكافي، دار الآفاق الجديدة، بيروت. الطبعة الرابعة: 1401هـ/1981م. ص: 37–38.

See: Durrah al-Tanzīl wa Ġurrah al- Taʾwīl: fī bayan al- ʾĀyāt Al-Mutashābihāt fī kitāb Allāh al-ʿAzīz, al-Khaṭīb al-ʾIskāfī, Dār al-ʾĀfāq al-Jadīdah, Bairūt.4th Ed. 1401H/1981. pg: 37-38.

(15) ينظر: ملاك التأويل: القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل. أحمد بن إبراهيم الغرناطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: 170–171.

Malāk al-Taʾwīl: al-Qāṭiʿ bi dhawī al-ʾilḥad wa al-taʿṭīl fī Taujīh al-Mutashābih al-Lafẓ min ʾĀy al-Tanzīl, ʾAḥmad bin ʾIbrāhim al- Ġarnāṭī, Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, Bairūt. pg: 170-171.

(16) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجانى، ت– محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى القاهرة، طبعة ثالثة 1413هـ –1993م . ص:134.

See: Dalā'il Al-Iʿjāz, ʿAbdulQāhir Al-Jurjānī, Researched by: Maḥmūd Muḥammad Shākir, Matbaʿah Al-Madani, Cairo, 3rd Ed. 1413 H/ 1993, pg: 134.

(17) شاع هذا عند من لهم عناية بتاريخ البلاغة والنقد العربية. ينظر: البلاغة تطور وتاريخ. ص: 379.

Al- Balaġah: Taṭawwur wa Tārīkh. pg: 379.

(18) درة التنزيل وغرة التأويل. ص: 113–114.

Durrah al-Tanzīl wa Ġurrah al- Taʾwīl. pg: 113-114.

(19) ملاك التأويل، ص: 487-488.

Malāk al-Taʾwīl. pg: 487-488.

(20) ينظر: دلالات التراكيب ص: 269 – 275.

Dalālāt Al-Tarkīb. pg: 269-275.

(21) درة التنزيل وغرة التأويل. ص: 39.

Durrah al-Tanzīl wa Ġurrah al- Taʾwīl. pg: 39.

(22) دلالات التركيب. ص: 303.

Dalālāt Al-Tarkīb. pg: 303.